علي محمود طه

حياته من شعره

للأستاذ أنور المعداوي

— ١٢ —

كانت بيئة ضنت عليه بما يشتهي ، وحرمته أكثر ما يطلب ، وقيدت قدميه فما يستطيع أن يندفع ، وطوت جناحيه فما يستطيع أن يطير ... ولم يكن واحداً من هؤلاء الذين يرضون بالقيود ويخضعون للأصفاد ، ولئن رضى بالأولى وخضع للثانية في تلك الفترة التي يتغزى فيها شباب الروح والجسد ، فلأنه كان نتاج مجتمعه ووليد بيئته . ومن هنا اشتكت روحه وتعذب جسده وضجت بخيبة الرجاء أمانيه !

اشتكت روحه من وطأة القيد وسطوة السجان ، وتعذب جسده من قوة الغريزة وغلبة الحرمان ، وضجت أمانيه وهو يتطلع إلى الأفق البعيد وبين جنبيه رهبة المشفق من مستقبل مجهول ... وانعكس هذا كله على فنه : أنات متصلة ينقلها إليك شعر تكاد تشم فيه رائحة الدموع؛ شعر مظلم إن عثرت فيه على البسمة المشرقة فهي التماعة البرق الخاطف في سماء داكنة ، تظلل حواشيها ألوان من السحاب والضباب! واستمع إلى هذه الشكاة الأولى في الصفحة الثالثة والثلاثين من « الملاح التائه » ، من قصيدة عنوانها « غرفة الشاعر » :

أيها الشاعر الكئيب مضى الليل وما زلت غارقاً في شجونك
مسلماً رأسك الحزين إلى الفكر وللسهد ذابلات جفونك
ويد تمسك اليراع وأخرى   في ارتعاش تمر فوق جبينك
وفم ناضب به حر أنفاسك يطفى على ضعيف أنينك
لست تصغى لقاصف الرعد في الليل ولا يزدهيك في الإبراق
قد تمشى خلال غرفتك الصمت ودب السكون في الأعماق
غير هذا السراج في ضوئه الشاحب يهفو إليك من إشفاق
وبقايا النيران في الموقد الذابل تبكي الحياة في الأرماق
أنت أذبلت بالأسى قلبك الغض وحطمت من رقيق كيانك
آه يا شاعري لقد نصل الليل وما زلت ساهراً في مكانك
ليس يحنو الدجى عليك ولا يأسى لتلك الدموع في أجفانك
ما وراء السهاد في ليلك الداجي وهلا فرغت من أحزانك ؟
قم الآن من مكانك واغنم   في الكرى غبطة الخلي الطروب
والتمس في الفراش دفئاً ينسيك نهار الأسى وليل الخطوب
لست تجزى من الحياة بما حملت فيها من الضنى والشحوب
إنها للمجون والختل والزيف وليست للشاعر الموهوب !

لقد حدثناك عن المزاج الكئيب في شبابه الباكر وها هو بين يديك في البيت الأول ، وحدثناك عن الطابع الحزين في حياته الأولى وها هو يطل عليك من البيت الثاني. وزد على ذلك الجفون الملتهبة من السهد ، والأصابع المرتعشة فوق الجبين ، والفم الناضب من وحيق الحب ، والشعور الطافح بمرارة الأنين ! وأي شباب هذا الذي يشغل عن الرعود حين تقصف وعن البروق حين تسطع ، بتلك الغرفة الصامتة وهذا السكون العميق ، يرقب بروحه الغافية ضوء المصباح الشاحب شحوب الأمل ، وبقايا النيران في الموقد الذابل ذبول الحياة ؟! يمر عليه النهار فيعصف بقلبه الغض وكيانه الرقيق عصف الرياح العاتية بالنبتة الواهية ، وينقضي عليه الليل وهو حائر في مكانه من الغرفة الصامتة لا يطمئن ، ولا شيء في عينيه غير الدموع ، ولا شيء في فكره غير السؤال عما وراء السهاد ... ولا جواب !

وأي شباب هذا الذي يفزع من وحشة اليقظة إلى أحضان الكرى ينشد الأنس الأنيس في ظلال الأحلام ، ويلتمس في الفراش شيئاً من الدفء ينسيه برد الأسى وتجهم الأيام ؟! هو ذلك الشباب الذي خلق للضنى والشحوب ، وخلق لهذا المزاج الرومانسي الضارب في مجاهل الغيوب ! ... ومرة أخرى تعال نستمع إليه وهو ينثر بين أيدينا خفقات قلبه ، في هذه الأبيات التي نقتطفها من قصيدة عنوانها «قلبي» ، في الصفحة الحادية والخمسين من «الملاح التائه» :

يا قلب : مثل النجم في قلق   والناس حولك لا يعونا
لولا اختلاف النور والغسق   مروا بأفقك لا يطلونا
فاصفح إذا غمطوك إدراكا   واذكر قصور الآدمينا

أتريدهم يا قلب أملاكا — كلا . . وما هم بالنبيينا !
هم عالم فى غيه يعمى — مستغرقا فى الحمأة الدنيا
نزلوا قرارة هذه الأرض — وحللت أنت القمة العليا
عباد أوهام وما عبدوا — إلا حقير منى وغايات
ومناك ليس يحدها الأبد — دنيا وراء اللانهايات !
يا قلب كم من رائع الحلك — ألقاك فى بحر من الرعب
كم عذت منه بقبة الفلك — وصرخت وحدك فيه يا قلبى
ومضيت تضرب فى غياهبه — ورد عنك المائج الصخبا
تترقب البرق الخطيف به — وتسائل الأنواء والسحبا
وخفقت تحت دجاه من وجل — كالطير تحت الخنجر الصلت
وعرفت بين اليأس والأمل — محو الحياة وسكرة الموت
يا قلب عندك أى أسرار — ما زلن فى نشر وفى طى
يا ثورة مشبوبة النار — أقلقت جسم الكائن الحى
حملته العبء الذى فرقت — منه الجبال وأشفقت رهبا
وأثرت منه الروح فانطلقت — تحسو الجحيم وتأكل اللهبا
وعجبت منك ومن إبائك فى — أسر الجمال وربقة الحب
وتلفت المتكبر الصلف — عن ذلة المقهور فى الحرب
يا حر كيف قبلت شرعته — وقنعت منه بزاد مأسور ؟
آثرت فى الأغلال طلعته — وأبيت منه فكاك مهجور !
وصحوت من وهم ومن خبل — فإذا جراحك كامن دم
لجت عليك مرارة الفشل — ومشى يحز وتينك الألم
والأرض ضاق فضاؤها الرحب — وخلت فلا أهل ولا سكن
حال الهوى وتفرق الصحب — وبقيت وحدك أنت والزمن !
وصرخت حين أجنك الليل — متمرداً تجتاحك النار
وبدا صراعك أنت والعقل — ولأنتما بحر وإعصار !
ما بين سلمكما وحربكما — كون يبين ويختفى كون
وبنيتما الدنيا وحسبكما — دنيا يقيم بناءها الفن !

أنظر ، هنا زفرة تأخذ مكانها فى الطليعة من هذه الزفرات ، زفرة مصدرها أن الناس لا يحفلون به وهو الشاعر الموهوب . والإشارة إلى حقه المهضوم تطالعك فى البيت الأخير من « غرفة الشاعر » فى لمحة عابرة ، ولكنها تواجهك هنا فى وقفات متأنية متتابعة ... لقد كانت حياة على طه كما استخلصناها من صحبته بالأمس وكما نستخلصها اليوم من شعره ، كانت فراغاً موحشاً فى أيامه الأولى بقدر ما كانت امتلاء مؤنساً فى أيامه الأخيرة . حرمان من المرأة وحرمان من الشهرة : وهذا هو الفراغ الذى يحيل الحياة جحيما لا نسمة فيه تنعش زهرة الفن ولا قطرة ماء تروى شعلة الجسد ! هناك رجل قد يحل إرضاء الجسم فى حياته محل إرضاء الإسم تبعاً لمركب النقص ومركب التعويض ، أى أنه إذا حرم متعة من المتع أمكن أن يستعيض عنها بمتعة أخرى تشعره أن الحياة ليست ممراً فى كل مكان وليست فراغاً فى كل آن ... فإذا فقد ذيوع الصيت مثلا أو شيوع الذكر ونباهة الشأن، فإنه يستطيع أن يشغل عن اللذة النفسية بلذة أخرى حسية ، تتمثل فى تلك الصلات التى تعمل فى ميدان الجنس حيث تستنفد القوى الكامنة بين شعاب الغريزة . ولك أن تعكس القضية من وضع إلى وضع حين تقوم المعنويات مقام الماديات ، لتتم عملية الاستبدال بين طاقة إنسانية تقنع بواقع الحقائق وبين طاقة أخرى تقنع بما وراء الحقائق من أوهام !

لو وجد على طه المرأة فى إبان شبابه لسكن الجسم القلق وخبت الجذوة المتأججة وخفتت الصيحة الساخطة على مرارة الحياة . ولو حصل على الشهرة لاستقر القلب الحائر واطمأن الفكر الشارد وفترت الصرخة العاتبة على إدراك الناس . ولكنه حرم كلتا المتعتين فعاش غريباً فى دنياه ... غريباً بالقلب والفكر والروح !!

ولا بد هنا من سؤال يفتح أمام السائلين باباً من أبواب الحقيقة المستترة وراء الظواهر الفنية فى حياة هذا الشاعر ، وهذا هو السؤال : لم حيل بينه وبين الشهرة فلم يظفر بالمجد الأدبى الذى كان يتطلع إليه ويحلم به ويتمناه ؟ هل كان شعره فى مرحلة شبابه الأول دون المستوى المنشود لتحقيق مجده فى سجل الشعر وترديد اسمه على أفواه الناس ؟ كلا ، فلم يكن شعره فى تلك المرحلة دون المستوى المنشود بحال من الأحوال ، بل لقد كان من أجود الشعر وأصدقه وأحفله بوثبات الأداء ، ولكن كان فيه جانب نقص حال بين الشاعر وبين فرصة الظهور ... لقد كان على طه يدور بأكثر شعره حول محور ذاته شأن المنطوين على أنفسهم من شباب ذلك الحين ، ولقد شغلته نفسه عن الالتفات إلى ما حوله من شئون المجتمع وأحداث الحياة ، وأجبرته بيئته وطبيعته على أن ينظر فى

أمر هذه النفس قبل أن ينظر فى أمر غيرها من النفوس ، فى وقت أقام الميزان للشعر الاجتماعى وكاد يهمل ما عداه . ومن هنا تخلف شعر النفس الإنسانية أو شعر الذاتية الفردية عند على طه وأمثاله من الشباب ، ليتقدم شعر العاطفة الاجتماعية أو شعر النزعة القومية عند شوقى وأمثاله من الشيوخ .. وغطى هؤلاء على أولئك من هذه الناحية وحدها لأنهم كانوا الصدى المعبر عن كيان جيل كامل من المصريين ؛ ذلك الكيان الذى كان قوامه رصد الأحداث وتسجيل الهزات وتحريك الهمم وإشعال النفوس !

ولقد كان على طه معذوراً فى أن يشغل بأمر نفسه عن أمر مجتمعه لأنه فنان ، فنان لم يهيء له مجتمعه غير القيود التى أدمت منه الجناح واستنفدت جل وقته فى تضميد تلك الجراح ! وهذه هى الناحية التى غفل عنها الدكتور طه حسين حين اكتفى بتسجيل الظواهر الفنية دون أن يرجع إلى ما وراء الظواهر من أسباب .. وهذه هى كلماته عن الشاعر فى هذا المجال ، نسوقها إليك من الصفحة السادسة والستين بعد المائة من الجزء الثالث لكتاب «حديث الأربعاء» : «وأريد أن أضيف إلى ما يعجبنى فى شعره أنه حلو الأسلوب جزل اللفظ ، جيد اختيار الكلام ، وأن لألفاظه ومعانيه رونقاً أخاذاً تألفه النفس وتكلف به وتستزيد منه ، وأن فى شعره موسيقى قلما نظفر بها فى شعر كثير من شعرائنا المحدثين ، وأنه قد استطاع أن يلائم إلى حد بعيد ، لا بين جمال اللفظ وجمال المعنى فحسب ، بل بين التجديد والاحتفاظ باللغة فى جمالها ورونقها وبهجتها وجزالتها . كل ذلك ظاهر فى أكثر ديوانه لا أكاد أستثنى منه إلا هذه القصائد التى قيلت فى المناسبات ولم يوحها الشعور الطبيعى للشاعر ! فشاعرنا ترجمان الطبيعة ، وترجمان الإنسان إذا اتصل بالطبيعة وضل فى فيافيها أو فتن بجمالها ، ولكنه ليس شاعر الجماعات ولا ترجمانها ، شاعر متفنن ، شخصيته أقوى من بيئته ، وليس قصاصاً بيئته أقوى من شخصيته » !

لقد خرج الدكتور من شعر على طه الأول بأنه فى ذلك الحين لم يكن شاعر الجماعات ، وهذا حق ... ولكنه اكتفى بالتسجيل والإشارة دون البحث والتعقيب ، مع أن المفتاح كامن بين طوايا العبارة التى أعلن فيها عدم إعجابه بشعره الذى نظمه فى عدد من المناسبات ، كامن فى قوله بأن تلك القصائد لم يوحها الشعور الطبيعى للشاعر ! الواقع أن «الشعور الطبيعى» لم يوح شعر المناسبات فى ديوان شاعرنا الأول ، وهذه لمسة جد موفقة من الدكتور الناقد ، ولكنه أدار المفتاح فى ثقب الباب ولم يفتح ... لقد كان عليه أن يرجع إلى طبيعته النفسية فى ذلك الحين وما اكتنفها من عوامل البيئة وتأثير النشأة ليربط بين النتائج والمقدمات ، ولو رجع لنفذ إلى أغوار الحقيقة التى تزيح الستار عن «الشعور الطبيعى» حين يجيد التعبير عن «المناسبة الذاتية» دون غيرها من المناسبات !!

وبقى سؤال آخر ننتظر أن يتردد فى بعض الأذهان ، وهو أننا قد أشرنا إلى أن الجمهور القارىء فى الربع الأول من هذا القرن كان لا يستهويه شىء كما يستهويه الأدب الحزين المعبر عن مزاجه الحزين . فكيف يتفق هذا الرأى مع قولنا بأن على طه لم يستطع أن يحتل مكانه فى مقدمة الصفوف مع أن شعره القاتم كان حرياً باجتذاب هذا المزاج القاتم عند قارئيه ؟! ... الحق أن موقف الشاعر فى ذلك الحين كان شيئاً يختلف كل الاختلاف عن موقف الكاتب الأديب ، وحسبك أن الجمهور القارىء كان يقبل على الآثار النثرية الباكية وينصرف عن الآثار الشعرية التى يتطرق إليها طابع البكاء . قدم إليه قصة فيها الفاجعة وفيها المأساة ، وقدم إليه قصيدة فيها أحوال المجتمع ومطالب الحياة ، يتهافت على هذه كما يتهافت على تلك ، وحسبك دليلا أن المنفلوطى قد أرضى تلك الأذواق بنثره وأن شوقى قد أرضى بشعره نفس تلك الأذواق ، على الرغم مما بين الوجهتين من تباين واختلاف ! ومرد هذه الظاهرة إلى أن الشعر كان مطالباً فى تلك الفترة بأن يكون اللسان الصادق للحالة الاجتماعية والسياسية ، كان مطالباً بأن يكون ترجمان المشاعر القومية العامة فى وقت كانت النفوس تتحرق ظمأ إلى استرجاع الحرية المسلوبة والاستقلال الضائع والوطن المغتصب ، ذلك لأن الشعر كان أكثر إلهاباً للشعور من النثر ، وحسب النثر أن يعبر عن المشاعر الفردية التى ران عليها الحزن فى نفوس الشباب وخيم عليها الأسى والانقباض !

ولا بد من التفرقة بين الكتابة الأدبية فى ذلك الحين وبين الكتابة الصحفية ، لأن النثر الصحفى كان يقوم بواجبه القوى إلى جانب الشعر ، ونحن نقصر الحديث على الإنتاج الأدبى فى النثر دون سواه ...

ومن هنا حيل بين شاعرنا وبين الشهرة ، ومن هنا ثار على أذواق الناس وموازين الناس ، هذه الثورة السافرة التي بدأ بها المقطوعات الأولى من قصيدته . . أما بقية المقطوعات فليست إلا ترديدا لتلك الأنغام الباكية التي كانت رجع الصدى لفنون من الحرمان أهما الحرمان من المرأة ، ولقد كان خلو حياته من الشهرة والمرأة كما سبق أن قلنا لك ، مبعثا لهذا الشعور العميق بأنه وحيد في دنياه ، يعانى قسوة الوحدة وحرقة الاغتراب :

والأرض ضاق فضاؤها الرحب وخلت فلا أهل ولا سكن
حال الهوى وتفرق الصحب وبقيت وحدك أنت والزمن !

ومرة أخرى ينعى على الناس جحودهم المواهب وتنكرهم للنبوغ ، وتشعر أنه طريد الظلم وإهدار القيم ، ويأخذ على الشرق غفلته عن تقدير النابهين وبخاصة في مصر التي لا يلقون فيها غير الشقاء . . هناك في قصيدة عنوانها « الطريد » في الصفحة الثامنة والسبعين بعد المائة من « الملاح التائه » ونقتطف منها هذه الأبيات :

شق أجنته الدياجي السوادف سليب رقاد أرقته المخاوف
ترامى به ليل كأن سواده به الأرض غرقى والنجوم كواسف
إلى أين تمضي أيها التائه الخطى يساريك برق أو يباريك عاصف ؟
رأيتك في بحر الظلام كأنما إلى الشاطئ المجهول يدعوك هاتف
تخوض الدجى سهمان والنجم حائر يسائل : من ذاك الشقي المجازف ؟
طريد ايفر الوحش من وقع خطوه ويهرب عنه الصل والصل واجف
كأن إله الشر يقتحم الورى أو أن الردى في برده الرث زاحف
فواعجبا ! لم تحمل الأرض مثله ولا طاف منه بالدجنة طائف
يخاف الثرى مسراه وهو يخافه وبينهما يسرى الدجى وهو خائف
ترى أى سر في الظلام محجب أليس له من نبأة القلب كاشف ؟
أجبنى طريد الأرض إنى يهزنى إليك هوى من جانب الغيب شاغف
فردد ذاك الطيف صوتا محببا إلى كلحن رددته المعازف
وقال أجل إنى الطريد وإنه أسى تهز القلب منه الرواجف
أتسألك الأفلاك عنى أنا الذى رمته الدياجى والرعود القواصف؟
أجل : إن ذاتى بالدجى تنكرت لعينيك لكن القلوب تعارف !
وما أنا إلا من بنى الأرض نائبى مقيم عذابى والشقاء المحالف
وما كان هذا النوء والموج والدجى ليرهب نفسا حقرت ما تصادف
سواء لديها أشرق الفجر أم سجت غياهب في سر الدجى تتكاثف
أيجحد في الشرق النبوغ ويزدرى ويشقى بمصر النابهون الظارف ؟!
يجوبون آفاق الحياة كأنهم رواحل بيد شردتها العواصف
طرائد في صحراء لانبع واحة يرق ولا دان من الظل وارف
ألا إن لي قلبي طمينا تحوطه عصائب تنزو من دمى وانفائف
أقلته أحنائى ذماء ولم أزل به في غمار الحادثات أجازف
كما رف نسر راشه السهم فارتقى خفوق جناح وهو بالدم نازف !

من يصدق أن صاحب هذا الشعر هو علي طه ؟ ومن يصدق أن الدنيا التي ودعها وهي على شفتيه ابتسامة عريضة قد استقبلها يوما وهي في عينيه دمعة محرقة ؟ هكذا كان ! وجوهر شخصيته أنه لم يخلق للدموع وإنما خلق للابتسامات ، ولم يخلق للقيود وإنما خلق للتحرر والانطلاق . ومفتاح شخصيته أنه كان في شبابه الأول من صنع بيئته وأنه كان في شبابه الأخير من صنع نفسه . . أي أن بيئته بالأمس كانت أقوى من إرادته فأخضعت تلك الإرادة وقررت مصيره في غمار الحياة، وأن إرادته بعد ذلك قد تغلبت على بيئته فحطمت أغلال تلك البيئة وهيأت له أن يختار مصيره برضاه ! !

لقد كانت الحرية ملتقى أحلامه وحديث أمانيه ، وكانت الحرية في رأيه هي ذلك النبع الفياض الذي تتطهر في مياهه آلام الجسد والروح ، ولن تتطهر آلام جسده وروحه إلا إذا ظفر بشيئين : المرأة والشهرة . . وفي سبيل هذه الشيئين ظل يكافح الأمواج والأنواء طيلة ثلاثين عاما حتى بلغ المرفأ ، وحين بلغ المرفأ بزورقه المجهد بعد رحلة مضنية ، استطاع أن يعب من هواء الحرية وأن يتنفس بملء رئتيه وأن يبتسم في وجه الأيام . ومن وراء هذه البسمة المشرقة راح يتطلع إلى ماضيه ، ولم يملك حين أطل على الماضي المظلم من فوق قمة الحاضر الوضيء ، لم يملك إلا أن ينظر إلى العمر الذي ضاع نظرة الساخر الشامت أو نظرة الظافر المنتصر ! وارجع إلى قصيدته في « بحيرة كومو » لتدرك كيف كان ينظر إلى حياته فيما قبل الثلاثين :

شاعر النيل طف بها غنها كل مبتكر
الثلاثون قد مضت في التفاهات والهذر !

(يتبع)

أنور المعداوي